عاد رمضان فماذا سيسجل في جبين المسلمين.؟!

2015-06-20مصطفى قطبي

يحلّ رمضان هذا العام كسابقه، بغير جديد يسر عرباً ومسلمين كثيرين في أنحاء شتى من العالم... فمن بلاد الشام إلى بلاد الروهينقا، مروراً بالعراق وأفغانستان وفلسطين ومصر وليبيا وتونس واليمن... يغص المشهد العربي والإسلامي بألوان الدم والدخان، وبالقتل والحرائق وبيارق الفرق المتناحرة...

المتأمل لما يدور داخل العديد من الدول العربية من صراعات سيلحظ منذ الوهلة الأولى أن أحد طرفي الصراع في كل دولة تنظيم أو جماعة دينية متطرفة وإن اختلفت الأسماء بدءا من تنظيم القاعدة ثم داعش مروراً بجبهة النصرة وأنصار الشريعة وأنصار بيت المقدس وأجناد مصر وأسماء أخرى كثيرة تمارس العنف بهدف إسقاط الأنظمة الحاكمة وإقامة ما تسميه الدولة الإسلامية أو الإمارة الإسلامية ـ هكذا يزعمون ـ إلا أنه في الواقع ما يفعلونه هو محاولة إسقاط الدولة عن طريق انهيار أركانها ومؤسساتها الأمنية والعسكرية ثم تفتيتها وتقسيمها إلى دويلات صغيرة لا حول لها ولا قوة!

ليس هناك من مصيبة أكبر من أن العنف والدماء وإزهاق الأرواح ـ وأغلبها بريئة ـ في سوريا والعراق ومصر وليبيا وتونس واليمن وغيرها، يجري بإسم الدين والتعصب الطائفي. ونتساءل:

كيف صام هؤلاء الداعشيون الذين يتبنون العنف، أيّاً كان، لتحقيق هدف سياسي؟ وكيف فجروا وقصفوا وحتى ـ يا للبشاعة ـ ذبحوا وهم يهتفون بإسم الله؟

فالخسائر الجسيمة في الأنفس البريئة وعمليات التهجير وفقد الأحبة والأوطان والممتلكات وغياب الأمن والاستقرار والجراح في الأنفس والأجساد بلغت حداً لا ينبغي السكوت عنه وتجاوزه، هذا فضلا عن مخاطر التقسيم والصراعات الطائفية والأهلية والتدخلات الأجنبية في هذه الدول بخاصة.

وفي موقف آخر ورأي مغاير وسلوك مناقض وعمل يتعارض مع سابقه يفتي البعض ويحرض ويدعو إلى الفتنة وإلى تكفير أخوة لهم من المنتمين إلى الدين الإسلامي ممن يتحدثون باسمه ويحملون هويته، ويشاركونهم الإيمان والشهادتين والصلاة والصوم والزكاة وأداء فريضة الحج؟

بل وأكثر من ذلك فهم أبناء وطن واحد، أي يشتركون في المواطنة والإنسانية ولهاتين المفردتين من السعة في حجم المسئولية والقيم والعمل المشترك ما يؤدي في حالة تجاهلهما وتجاوزهما وإلغاءهما من القاموس العام إلى ضياع الوطن وانهيار مؤسساته وافتقاد الأمن والاستقرار وإدخال المجتمع في نفق من الصراعات الطائفية والمذهبية والحزبية والأيديولوجية ما تؤدي إلى ما نراه اليوم في الصومال وسوريا والعراق ومصر ودول عربية أخرى تسير وفق مؤشرات كثيرة إلى ذات المنزلق الخطير والنفق المظلم.

هل يمكن أن نطلق على هذه الدول أو الإمارات أو المذاهب المتناحرة والمتصارعة فيما بينها والتي تفوح روائح الموت والكراهية والتعصب والدعوات إلى المزيد من القتل والتناحر من سلوك وأفعال وأقوال وتصرفات القادة والساسة والثوار وبعض العلماء ومن يسير في ركابهم، وتحول السيارات المفخخة والأسلحة المتطورة فيها البشر إلى أشلاء والمساجد والمنازل والمنشآت القائمة إلى أكوام من التراب فتدمر وتهدم وتسفك من الدماء ما لم يقم به الأعداء الذين نحملهم جميع مصائبنا وإحباطاتنا وتخلفنا وضعفنا، هل يمكن أن نطلق عليها بالأمة العربية أو الوطن العربي؟

ومن هو الممثل الحقيقي والمتحدث الرسمي بإسم هذه الأمة لو سلمنا بأن الإسم قائم وصحيح ويمثل رمزاً لا يمكن التنازل عنه والتسليم بزواله وانتهاءه؟

للأسف نعم، هناك من يظن أنه بارتكاب أعمال العنف في البلاد المشتعلة حالياً، وغيرها من بلاد المسلمين وغير المسلمين، إنما يقترب من باب الله مجاهداً ونصيراً. هؤلاء الدواعش في الأغلب حفظة لا يفقهون ما يحفظون من دجل سياسي تسربل بالدين على مر السنين. تعود تلك السنين إلى بداية دولة الإسلام قبل عشرات القرون. لكن يصعب مناقشة هؤلاء، والذنب الأكبر على من لقنوهم ونشروا بينهم تلك الأفكار الدموية مستغلين الجهل والفقر وحمية الشباب الذي لا يعرف سبيلا إلى باب الله فيؤمه إرهابي فاسق في الأغلب إلى باب الشيطان.

لقد اختلط الديني بالدنيوي، وغلبت السياسة وعلاقات القوى على الأخلاق واستغلال الشعائر وتفسيرات الآيات والأحاديث لخدمة أغراض سياسية ـ دنيئة أحياناً أو جيدة أحياناً أخرى، حسب زاوية نظرك وتأثيرها عليك (التأثير الدنيوي طبعاً). ونتساءل بكل هدوء:

من الكافر هنا ومن المسلم؟ من الذي ما زال على سنة محمد (ص) ومن الذي انحرف عنها؟ من بيده القول الفصل ومن هو المخول في إصدار الحكم والقادر على جمع هذه الآراء والمذاهب والأفكار والأشخاص في صعيد واحد وعلى كلمة سواء؟

ولو سلمنا بأن الحق والاستقامة والتمسك برسالة الإسلام كما نزلت على رسول الإسلام تأكدت واجتمعت في مذهب من المذاهب فأي قوة أو معجزة ستتمكن يا ترى من إقناع المذاهب الأخرى بالتحول عنها إليه بعد أكثر من ألف وثلاثمائة من انتسابها واستمرارها وبقائها على المذهب التي هي عليه؟

وما هو الحل لهذه المعضلة التي تواصلت واستمرت عبر قرون من الزمن؟ هل هناك من علاج أجدى وأنفع وأفضل وأصلح من التعايش السلمي والقبول بالآخر والإقرار والاقتناع بأن الخلاف في الرأي وفي الممارسة وفي مجالات التفكير مسألة طبيعية وصحية بين البشر ظلت وستستمر ما بقي الإنسان وعلينا أن نؤسس لثقافة إنسانية حضارية تستوعب مختلف الآراء وتجرم وتحرم استخدام القوة والشحن وبث الفتن لتطويع رأي أو مذهب على الآخر؟

هل المطلوب والمبتغى أن يلغي الواحد منا الآخر وأن يفنيه عن بكرة أبيه ليظل هو مستفرداً بالوطن والسلطة واتخاذ القرار؟ وهل يمكن أن يتحقق ذلك ونحن في صراع متواصل وحروب مدمرة تهدأ وتشتد منذ أكثر من ألف سنة؟

تبدو صورة الوضع في العالم العربي قاتمة ولا تلوح في الأفق بوادر انفراج للازمات التي تعيشها الشعوب العربية. فالاتحادات والمشاريع والمرئيات والتوصيات المطروحة والمقترحة والمعتمدة على الورق تأتي في إطار التعاون المشترك وتحقيق الغايات والأهداف، أصبحت في مهب الريح لا أحد يتذكرها أو يعيرها اهتماماً، فالكوارث والصراعات والانزلاقات التي تحل بالبلدان العربية

الواحدة تلو الأخرى عزلتها عن محيطها العربي بل وأشغلتها حتى عن مجتمعها الداخلي الذي يعاني ويلات الحروب والفقر والملاحقة والتمزق النفسي والاجتماعي...

ولن نتوسع في استعراض مآسي الجهل والتخلف والضياع الثقافي والاختراق الأمني والانهيار الأخلاقي لأنها أصبحت من المسلمات وحالة مستعصية لا يمكن الفكاك منها في عالمنا العربي حيث وصل الحال بالمواطن العربي أن يعيش في حال من الرعب والخوف الدائم من القتل والسعي إلى تأمين نفسه وتوظيف وقته وجهده وإمكاناته ما استطاع إلى ذلك سبيلا لحماية أسرته ونفسه من الموت، وانشغلت كل بلد أو مدينة أو فئة بهمومها ومشاكلها وقضاياها ومصالحها.

إذن فالأمر لا يتطلب جهداً سوى قراءة التاريخ بعين لا تغشى عليها ظلمة العقل الذي يحفظ ولا يفهم لتكتشف أنه حتى ما قبل صراع الأمويين والعباسيين وما بعدهم كان المصحف يرفع على السيف على طريقة ما يفعله الإخوان الآن (الإسلام هو الحل). ويزخر تاريخنا بشيوخ ومفتين وعلماء يوصفون من قبل مناوئيهم السياسيين بأنهم علماء السلاطين ـ أي من يلوون روح الدين لأغراض الدنيا. وفي الجانب الآخر هناك من هؤلاء وأولئك بذات القدر والتوجه.

فمَن مِن العلماء أو المؤسسات الدينية أو القادة أو الساسة يمكننا أن نأتمنه وأن نسلمه قيادة الأمة والمتحدث بإسمها وأن نرى فيه ما يمثل سماحة الإسلام وعظمته ومصالح المنتمين إليه في ظل هذه الفوضى الهائلة والكم الكبير من الفتاوى التي تطرح والمبادرات التي تطلق والشعارات التي ترفع والتي تهدم أكثر مما تصلح وتثير الفتن وتشحن العقول بدلا من أن تصلح النفوس وتدعو إلى المحبة والتآلف والتآزر بين أبناء الأمة وتعيق أي حراك أو جهد يسعى إلى إخراج الأمة من هذا المأزق الذي تعيشه والذي يدعي فيه الواحد ما ينقضه الآخر في طرفة عين؟

فلا نرى إلا سيوف تقطع الرقاب وتئد الحياة وتحول بياض المستقبل إلى سواد حالك، من يملك حق الإجابة على هذه الأسئلة الواسعة والمتشعبة والشائكة التي تخص حياة ومستقبل وواقع الأمة، هل هم العلماء أم المؤسسات الدينية أو الساسة والقادة؟

من يلتفت اليوم إلى حال الأمة ومن يشغله واقعها المؤلم ومن يسعى ويعمل على لم شملها

والدفاع عن حقوقها؟ هل يفيد البكاء والعويل والصراخ والقول والكتابة شيئاً، هل تجد أذناً صاغية قادرة أو ترغب في الفعل الإيجابي والعمل على تحقيق الأهداف والغايات الكبرى التي ظلت على مدى أكثر من نصف قرن شعارات نرددها في وسائل الإعلام وفي اجتماعاتنا ومؤتمراتنا المتواصلة؟

وهذا يعني أننا في حاجة إلى سياسة جديدة بعد رمضان لمواجهة التحديات التي تفرض نفسها على المجتمع لتحصين الجماهير. فينبغي أن تضعنا الصورة القاتمة للمشهد العربي والإسلامي، أمام مسؤوليتنا كعرب ومسلمين، كقادة وساسة وبرلمانيين، علماء ومثقفين وإعلاميين وفاعلين، أن نعمل ليلا ونهاراً وأن نسعى ونتحرك بكل إمكاناتنا وقدراتنا وقوانا لرأب الصدع وإصلاح ذات البين وتفعيل الحوار وتبيان ما يجمع ويوحد ويقرب، علينا أن نشكل لجاناً وأدوات تواصل وأن نوظف كل الوسائل والآليات لتحقيق الغايات والأهداف الكبرى...

أن نستنهض الهمم للمساهمة والمساعدة في إغاثة إخواننا ومساعدتهم والوقوف بجنبهم، علينا أن نقوم بكل عمل وفعل وقول فيه خير وصلاح ورفعة وعلاج لمشاكل ومآسي وأحزان هذه الأمة، علينا أن نسير وننطلق ونتوجه في هكذا طريق بدلا من الشحن الطائفي والمذهبي والفتاوى التي تبيح القتل وتدعو إلى الكراهية والتعصب وتعمق الفتنة والانقسام والانشطار وتنشر الجهل والتخلف والتي تمثل سلاحاً مدمراً يلتهم كل عمل صالح وجهد طيب ومبادرات مخلصة وأمل تحمله قلوب تدعو وتسعى لتحقيق المصالح العليا لهذه الأمة. فتحقيق النهوض والتطور والإصلاح، والاهتمام بالإنسان وتحقيق الرخاء والازدهار هو الذي يعطي للأوطان تميزها واستقرارها ويهيئ لمستقبل أفضل.

في نهاية عمله الخلاق يقودنا البروفيسور المصري د. حسن حنفي إلى أن الوحدة العضوية بين الدين والعلم والثقافة هو شرط التقدم الاجتماعي والنهضة الشاملة، حتى لا تزدوج الشخصية القومية بين نموذجين العلم والدين، وننسى الثالث وهو الثقافة، ولا تكثر برامج العلم والإيمان، وتقل البرامج الثقافية، لذلك قال ديكارت أنا أفكر إذن أنا موجود، ولذلك أيضاً قال القدماء العقل أساس النقل وموافقة صحيح المنقول لصريح المعقول، وأن الحكمة هي ما يقتضيه النظر بحسب طبيعة البرهان...

فهل من مكان لهذه المنظومات الفكرية الذهبية في زمن الثورات الهوجاء التي لا يدرى إلا الله وحده من وراءها وما هو جل مبتغاها...؟

وكل رمضان وأنتم بألف خير.

.....

* الآراء الواردة لا تعبر بالضرورة عن رأي شبكة النبأ المعلوماتية